جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقتلع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول له: (احفر طيبة)[1].

لم يمهله عبد المطلب.. لقد عاجله قائلاً: وما طيبة؟

ولـم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولـم يرد. وفي الغد رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عله يجد لذلك الحلم تفسـيراً، وما إن غاص في سـباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احفر بره)[2].

(يقـول عبد المطلـب: قلت: وما بره؟ ثـم ذهب عني، فلمـا كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه.. فجاءني فقال: احفر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تنزف أبداً ولا تذم، تسـقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

---

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

فلمـــا بيّن لعبد المطلب شـــأنها، ودل على موضعها وعرف أنـــه قد صدق، غدا[1] بمِعْوَلِـــه ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليـــس له يومئذ وليد غيره.. فحفر فيها، فلمـــا بدا لعبد المطلـــب الطي[2] كبَّر[3]. فعرفت قريش أنه قـــد أدرك حاجته.. فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. أشركنا معك فيها.

فقـــال عبد المطلب: ما أنا بفاعـــل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيتُه من بينكم.

فقالوا: أنْصفنا فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال عبد المطلب: نعم.

وكانت - هذه الكاهنة - بأشـــراف الشـــام. فركب عبد المطلب، ومعه نفر من بني أميـــة، وركب من كل قبيلة من قريش نفـــر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز[4]، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا عليهم. وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القـــوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً)[5]

لقد كان ذلك الرأي سقيماً.. إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة والضيق الذي لا مبرر له، إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك القوم.

---

(١) انطلق في الصباح.

(٢) طي البئر وهو من الحجارة.

(٣) قال: الله أكبر.

(٤) أي أن الأرض صحراء مهلكة لا ماء فيها.

(٥) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر ما بعده.

صـــاح عبد المطلب بتلك الجثـــث الملقاة في اللُّحُود قائلا: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفســـنا؛ لَعَجْزٌ.. فعســـى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارْتَحِلُوا.

فارتحلـــوا، حتى إذا بعث[1] عبد المطلـــب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشـــرب وشـــرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال. فقال: هلموا إلى الماء، فقد ســـقانا الله، فجاءوا فشـــربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة[2] هو الذي ســـقاك زمزم، فارجع إلى ســـقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم)[3].

رجع عبـــد المطلب بفضل الله وحده لا بهمهمات الكاهنـــة وتمتماتها، وأرجع الله بذلـــك النبع الحياة إلى جثث التحفـــت بقبورها، وقادتهم ناقة عبـــد المطلب إلى مكة يحملون على عيســـهم بعض الماء، ويحملون التســـليم بحق عبد المطلب ببئر زمزم، إنه الآن يتولى سقاية بئر جده إسماعيل عليه السلام..

جده إسماعيل صاحب البئر الأول، وأول من شرب منها رغم أنه لم يحفرها، لكنها من أجله تفجرت..

جده إسماعيل هو أول من سكن مكة.. عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً، لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدرانها جبال، كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر، تمر بها

---

(١) دفعها للنهوض.

(٢) الأرض التي لا ماء فيها.

(٣) ما بين الأقواس خبر صحيح عن علي رضي الله عنه وهولم يدرك جده، فهو مرسل ربما سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم.، رواه ابن إســـحاق دلائل النبوة ١-٩٣ : حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الله بن زرير، أنه ســـمع علي قال: قال عبد المطلب بن هاشـــم: إني لنائم في الحجر، إذ أتانـــي آت فقـــال لي: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عنـــي، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمـــت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قلـــت: وما المضنونة... إلخ يزيد ثقة التقريب ٦٠٠، ومرثد ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن زرير تابعي ثقة رمي بالتشيع التقريب ٣٠٣.

القوافـل فلا تتوقف، والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقـف، لكن رفقة طيبة توقفت، رفقة طاهـرة قادمة من البعيد البعيد، تعلو مع الدروب وتنخفض، تعبر الفيافي والقفار، وتعبر المفاوز والرمال، وتشق أمواج السراب.

امـرأة طاهرة.. اسـمها: هاجر.. جـاء بها زوجها الخليل عليه السـلام جاء بها إبراهيم وبابنها إسـماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت[1] عند دوحة[2] فوق زمـزم في أعلى المسـجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها مـاء، فوضعهما هنالك، ووضـع عندهما جراباً فيه تمر وسِـقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيـم منطلقاً، فتبعته أم إسـماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شـيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهـا، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعـم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثـم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه اسـتقبل بوجهـه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفـع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[3].

وجعلت أم إسـماعيل ترضع إسماعيل وتشـرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السـقاء عطشـت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظـر إليه فوجدت (الصفا)[4] أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم اسـتقبلت الـوادي تنظـر هل ترى أحـداً، فلم تر أحـداً. فهبطت من الصفا حتـى إذا بلغت بطن الوادي[5] رفعت درعها[6] ثم سـعت سعي الإنسـان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة)[7] فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

---

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام – الكعبة.
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.
(٤) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.
(٥) وهو ما بين العلامات الخضر الموجودة داخل المسعى الآن.
(٦) درع المرأة هو قميصها.
(٧) جبل آخر.

فلما أشـــرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمـــزم، فبحث بعقبه - أو بجناحه- حتى ظهر المـــاء، فجعلت تحوضه[1]، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إســـماعيل، لو تركـــت زمزم - لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشـــربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيـــت مرتفعاً مـــن الأرض كالرابية، تأتيه الســـيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رِفْقَةٌ من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم[2]، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرســـلوا جرياً أو جريين[3]، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إســـماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إســـماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرســـلوا إلى أهليهـــم فنزلـــوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم» وشـــب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إســـماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بِشـــرٍ، نحن في ضيق وشدة وشـــكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شـــيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وســـألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد

---

(١) تجمعه.

(٢) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إســـماعيل، ومع مرور الســـنين ألحدوا فأبادهم الله (لســـان العرب).

(٣) الجري هو الرسول.

وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه: فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.. فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه».

فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه: يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته.. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ عليك السلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة[2] مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم»

---

(١) أي اللحم والماء.

(٢) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»)[1]

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

وكان لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء، بل فيها الصبر والدماء.

فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

وكان هذا الذبح كبشاً افتدى الله به نبيه إسماعيل، وحفظ به نسله من الانقطاع.

---

(١) رواه البخاري ٣ - ١٢٢٧ عن ابن عباس موقوفا مع وجود فقرات مرفوعة.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

سافر إبراهيم، وماتت هاجر، وبقي إسماعيل في مكة حتى مات ودفن هناك، ومرت الأيام على بيت الله وكعبته، وسلالة إسماعيل تحيط بها وتجلها وتحترمها، ولا تلوثها بالشرك والأصنام، وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

كانت مكة نقية.. طاهرة من الشرك، حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: "عمرو بن لحي"، فبدأ بغرس الشرك في أرض مكة وقلوب أهلها، فانحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرسل، وأنزلت كل الكتب السماوية.. شيطان بشري اسمه: (عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة)[1] والسوائب: شياه وبهائم تترك للآلهة، لا تُمَسُّ ولا تُحْلَب.

غصَّت مكة بالشرك والأصنام، وانحرف أهلها عن عبادة الواحد الأحد وهن ملة أبيهم إبراهيم، إلى عبادة أخشاب وأحجار يصنعونها بأيديهم.. كانت الكعبة تئن مما نصب على ظهرها، أما أهل مكة فتناسل الشرك في قلوبهم وعقولهم، وكان آخرهم حفيد إبراهيم عليه السلام: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف، وحاز بئر زمزم، ولكنه لم يحز حتى كل أحلامه، لقد كان يحلم وينذر.

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّت عبد المطلب فوجد الناس تنظر إليه.. تحبه وتجله، وتحمله في قلوبها، وتَلَفَّت ثانية وثالثة ونظر وراءه، فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث، فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم، الذي ساق له المجد أن يقر عينه بأخوةٍ للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حوله.. يشهدهم ويقول لهم إنه: (قد نذر إن توافى له عشرة رهط[2] أن ينحر أحدهم.

فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد المطلب.

فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل)[3]

---

(١)حديث صحيح رواه البخاري ٣ - ١٢٩٧ ومسلم ٤- ٢١٩٢.

(٢) أي إن رزقه الله عشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن رواه الطبري في تاريخه ٢- ٢٣٩ حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا =

إن الله يعطي بلا ثمن ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو ليس بحاجة لدماء ذلك الطفل البريء، لكن والده شـــدد، فشـــدد الله عليه، فأصابه بأغلى ولده، فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشـــلت ذلك الصغير من السكين، ليعيش بقية عمرٍ قصيرٍ منقوشاً في التاريخ.. ما بقيت الجبال على ثباتها.

عاش ذلك الطفل وكبر ذلك حتى بلغ سن:

الزواج

تربـــى عبـــد الله ذلك الطفل الوديع فـــي قلب عبد المطلب وتربـــع فيه، وبلغ مبلغ الرجـــال دون أن يعرفه قومه بطيش أو ســـفه، كأني به هـــادئ كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير، كان كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عـــن زوجة لـه في بيوتات مكة ويســـأل، فكانت فتاة يقـــال لها "آمنة بنت وهب بن عبد مناف" هي الحبيبة وهي الإجابة.

تزوجا.. فـــكان الحب، وامتلأ بيتهما الصغير بالبهجة، وبالشـــباب الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال، ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه، ومن فدية أبيه، لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغيره..

إنها للعالم أجمع، أما هو فتوشـــك أن تدلف بيته الصغير ســـحابة سوداء مشبعة بالحـــزن والدمـــوع والنواح، فعبد الله الذي فر من الموت بمائة من الإبل.. يســـعى إلى حياضـــه علـــى واحد منها.. امتطى راحلتـــه وتوجه نحو يثرب.. حيـــث كان الموت في انتظاره، ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنـــة الحزينة، التي كانت تحمـــل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيناً تيتم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

= يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة، يونس ثقة ، وشـــيخه ثقة حافظ عابـــد التقريب ٦١٣، وابن يزيد ثقة التقريـــب ٦١٤، لكن في روايته عن الزهري وهماً قليلاً يجعل حديثه حسناً لذاته. انظر التهذيب ١١-٤٤٧.

كأني بعبد المطلب والفاجعة أفقدته صوابه.. يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم، علّه يسمع تكذيباً لما سمع، علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يمت ما زال حياً، وهو قادم إليك.

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هذه الدنيا، وتودع عبد المطلب، لينثني ذلك الشيخ الكظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة، فتبكي حبيبها الذي قبض بعيداً عنها، وفارقها في وقت كانت تحترق لعودته وتشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

ملأت الحيرة والوجوم مكة لهفاً على عبد الله، لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة، فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. مكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف وحراب جيش ضخم زاحف لهدم بيت الله الحرام وكعبته، كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها، ومن عبيدها إلى ساداتها، كأنما كان يدحرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب، فتطاير أهل مكة فوق ذرى الجبال وتفرقوا بين الشعاب، فالأمر فوق ما يحتملون، ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم، وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال لملكهم[1]:

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب: إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأَهَلَّ ثم قال:

---

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمبر مصفود على عشرين ألفاً... ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم إن لكل إله ... حلال فامنع حلالك
لا يغلبن محالهم ... أبداً محالك

اللهم فإن فعلت ... فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾[1]. فجعل الفيل يعج[2] عجاً.. فجعلهم.. كعصف[3] مأكول)[4].

كانت حجارة حقيقية لا تخطيء أهدافها، وكان عذاباً سماوياً مبيداً لطاغوت من الطواغيت.

أما في مكة فكان هناك من لم يستطع الهرب.. آمنة تعاني من آلام الوضع، ترى هل أقعدتها تلك الآلام.. هل تركها أهلها وحدها لتلد ابنها (في يوم الفيل)[5] وحيداً.. تفرق قومه ومات أبوه، والموت رعب وسيوف تحيط ببلده؟ لا أدري ربما.

لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم، وموتاً للهمجية والضلال، وُلد محمد، ومات أصحاب الفيل، وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة.. وأسراب الطيور.. (ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)[6][7]، وكانت ولادته

---

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فيتفتت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها، فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم ٢-٥٣٥ من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم:... إسحاق ثقة حافظ التقريب ٩٩ وشيخه ثقة التهذيب ٢-٥٧ وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرحه غير مفسر، قال ابن معين: ثقة جايز الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وقال الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح. وقال يعقوب: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد تقويه.

(٥) إسناده جيد رواه ابن سعد ١-١٠١ من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، يونس حديثه حسن. الكاشف ٢-٣٠٣ وحجاج كذلك وسعيد وابن معين أعلام.

(٦) رواه مسلم (٣-١٣٩٢) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٧) أما كم بين ولادته ووفاة والده فالأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(يوم الاثنين)[1] أحد أيام (شهر ربيع الأول)[2] من عام الفيل، وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

أساطير ومولد

مولد محمد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشرى للقلوب وفرحة للأرواح، وبداية الإنقاذ لهذه البشرية من التيه والظلمة، وتحويل هذه الجموع العطشى وردها إلى النبع الذي أضاعته وفرطت فيه، لكن ذلك لا يعني أن تتشقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى، حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض السذج، فصاروا يسقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب، فأنشأوا حوله الأساطير والخرافات، وجاءوا بالروايات الملفقة التي كادت تشوه سيرته الطاهرة[3].

كذبوا فقالوا: إن محمداً وهو طفل رضيع كان يناغي القمر، فحيثما أشار إليه اتجه، وكأنه يلعب به في مساحات الليل والفضاء، وكذب آخرون فقالوا: إن النجوم دنت من الأرض عند مولده، ولفقوا فقالوا: أنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أسرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث. لكن تلك الغيوم الأسطورية لم تستطع أن تحجب شمس الحقيقة، فلقد بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مساس، وكان منها:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (٢-٨١٩) حيث قال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٢) كونه ولد في شهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبة وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١-١٩٩) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد ابن جبير بن مطعم (ابن كثير ١-١٩٩) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشر من ربيع، فلم أعثر على خبر صحيح لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجحون يوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

(٣) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساتذتها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد، فميزوا الصحيح من الضعيف. وقد حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

طلوع نجم أحمد

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب، حيث يرقد عبد الله تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم. كان يهودياً، وربما كان فلكياً.

صـــرخ الرجل بقومه قائلاً : (يا معشـــر اليهود. فاجتمعوا إليـــه. قالوا: ويلك ما لك؟

قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)[1].

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن تختفي في سراديب اليهود المظلمة، لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن كبر وشاخ، غلام صغير من أهل يثرب اسمه حسان بن ثابت.

إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي، وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في الســماء، بــل كانوا يعرفون مكان خروجه.. فقــد أخبرتهم التوراة أنه سيســكن أرضــاً ذات نخل في جزيــرة العرب، وهي قريبة من جبــال "فاران" كما في التــوارة، وجبال فاران هي جبال مكة، لذا ســكن اليهود كل أرض ذات نخل في جزيرة العرب ومنها: خيبر وهجر وتبوك، ولكن أكثرهم سكن يثرب، ومن القبائل التي سكنت يثرب: قريضة والنضير وقينقاع. وهذا الرجل الذي رأى النجم أحدهم.

لــم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الــذي رأى هذا النجم، ففي مكة رجل حيران.. يقــال له: زيــد بن عمرو بن نفيل، كان يحدق في الأصنام.. يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله، فــلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها، وتخلف عقول أتباعها وعابديها. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء.. لا تقدم ولا تؤخر.

---

(١) حديث حســن، رواه ابن إســحاق ٦٢ سماعاً من صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غدات...) وهو إسناد قابل للتحسين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلس، والتابعون لم يتهموا وربما كانوا صحابة وللحديث شــواهد تقويه منها ما رواه ابن إســحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

ضاقت بها مكة وضاق زيد بها، فبحث له عن فسحة بين الفيافي والبطاح يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد، وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل، ولا يكف عن السؤال، حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام، فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع وصدقه واتبعه)[1].

أما في يثرب فـ(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد، مهاجره يثرب) [2].

كان اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً،لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم، وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب.

إذا فقد ولد محمد فمن سماه.

التسمية

قبل عبد الله، وقبل عبد المطلب، وقبل مئات السنين، كان هذا المولود حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء ويبشرون، ويوصون أممهم به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم، ويقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾[3].

كشف الله هذا الغيب وبشر به وذكر اسمه في الإنجيل، وفي التوراة من قبل الإنجيل، ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»[4]، ولا أدري من هو الذي حقق هذا الغيب

---

(١) إسناده حسن، رواه ابن حبان وأبو نعيم (ابن كثير ٢١٢/١) قالا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد عن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن عمرو. وهب ثقة التهذيب (١٥٩/١١) وخالد بن عبد الله الطحان ثقة، التهذيب (١٠٠/٣) وابن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عند البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

(٢) حسن بشواهده وسنده ضعيف رواه أبو نعيم (ابن كثير ١-٢١٤) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن وهو ضعيف. اللسان (٤٢٩/١)، لكن يشهد له ما سبق، وما في دلائل البيهقي ٩١/١ وما عند البيهقي أيضاً (٨٩/١).

(٣) سورة الصف: الآية: ٦.

(٤) سنده حسن رواه ابن سعد ١-١٠٤ من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة اسمه: عبد الله بن عامر القيسي،=

ووفقــه اللــه لهذا الأمر، أهو جده عبد المطلب، أم أمه آمنة بنت وهب؟ ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما، ولكنه في النهاية سمي محمداً، أما:

رضاعه وحضانته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشــاركها حضانته امرأة تدعى (أم أيمن) واسمها (بركة بنت ثعلبة بن عمرو)، وهناك امرأة ثالثة شاركت في رضاعه، وهي أَمَةٌ لعمه أبي لهب، واسمها: ثويبة. وقد (أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي)[1].

هذا في بداية الأمر، وبعد فترة من الزمن غشــيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش، وكانت أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.

ربما كان باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم، وربما كان فقيراً لا يســتطيع منافسة غيره في الانتقاء والاختيار لحفيده من بين تلك المرضعات، وقــد يكون بيت آمنة لا يغري المرضعــات على التوجه نحوه، فيجتمع لهذا الصغير يتم مرير وفقر موجع[2]. لم يدم الأمر فسرعان ما أصبح الطفل بعيداً عن أمنة.

محمد في هوازن

وأخيراً اســتقر محمد اليتيم في أحضان امرأة طيبة من هوازن اســمها (حليمة الســعدية).. شغفها حباً، وحملته على راحلتها ليســترضع في مضارب (بني سعد بن

= وقد حدثه بهذا الحديث شــيخه زهير بن محمد التميمي وهو حســن الحديث إذا روى عنه غير شــامي. وهذه رواية بصري وهي مســتقيمة كما قال الإمام أحمد. التهذيب (٣٤٨/٢) وشيخه عبد الله بن محمد ابن عقيل حسن الحديث، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف إسنادها، هناك روايــة تقول: إن حليمة لم تجد طفلاً ســوى محمد ﷺ، ولو عدنــا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنــا عبد المطلب غنياً يملك قطيعاً من الإبــل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائــة مــن الإبل فداءً لابنه عبد الله بعــد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبــل هي كل ما يملكه الله أعلم؟!

بكر)[1] قوم حليمة وأهلها، وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو، ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين، وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات، ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة، ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.

كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات ويمرحان ويلعبان، وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه، فيسكن ما بهما من جوع ويعاودان اللعب في مراتع البراءة.. كانت أياماً تشع بالبراءة والجمال والبهجة، لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمداً قد قُتِل

فما الذي حدث، ولماذا يقتل طفل.. من الذي يقوى على اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

ما حدث هو أن الصباح أيقظ الطفلين، فخرجا من الخباء خلف أغنامهما، ولم يذكرا أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى، وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه فقال: (يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)[2].

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في المرعى فهل حدث له شيء؟

نعم شُقَّ صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.

دعونا نستمع إليه وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني، ثم

---

(١) حديث حسن رواه أحمد ٤ - ١٨٤ حدثنا حيوة ويزيد بن عبد ربه قالا ثنا بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد السلمي انه حدثهم. وعبدالرحمن مجهول لكن يشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه حسن بعمومه.

(٢) جزء من الحديث السابق ويشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة.

استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف. فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم)[1].

لقد شُقَّ صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً، كان ينظر ما يفعله الملكان به، ثم رأت أمه حليمة أثر الشق ورآه أصحابه، كانت الطريقة التي تمت بها هذه العملية معجزة لا تحدث للبشر. أحد أصحابه الذين رأوا أثر تلك العملية يقول: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره حليمة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون)[2] أي متغير اللون . ويواصل حديثه مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)[3].

نعم لقد رآه، ولقد صدق، ولقد حدث، وهذا ما جعل حليمة بعد سماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه، لم يكن حلماً.. أتراها تعيده من أجل حلم أو رؤيا، ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم..؟![4].

---

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١). هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ .. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة فصاروا يلفقون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون نبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. مثل ما لفقه قاص ضعيف يدعى الغلابي. كما شطح على الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حلماً وليس حقيقة، فبم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟

(٤) هناك أمثلة كثيرة طالما كذبها أناس من المستخفين بالسنة، منها حديث البخاري أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحدكم فليغمسه كله في الشراب ثم يخرجه فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة -وهم لا يؤمنون بالأحاديث التي =

عاد محمد الصغير إلى أحضان آمنة ترعاه وتحنو عليه.. تحدثه ويحدثها.. تلاعبه ويلاعبها، وتقص عليه وتملأ دنياه ويملأ دنياها، فأي براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليمة. لا شيء كالأطفال براءة، فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة آمنة وسعادتها به، ويا لشقاءه بها وحزنه عليها، بعد أن أخذته معها متجهة به نحو أخواله في (يثرب)، حيث قضى وقتاً هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب، فسأعود لأضع لك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

وبعد رحلة حميمة زارا فيها أخواله الكرام الطيبين بني النجار رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة، تضمه بين أحضانها وتلاعبه وتقص عليه، وترد على أسئلته التي تعن له في الطريق، وأحيانا يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه.. تطعمه وتهدهده، وتعبث بشعره الناعم بأناملها، فيغفوا بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلاتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبها وأجواءها وطريقها، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة شعرت آمنة بأوجاع مضنية، فتوقفت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلقت عيناه بها، وهي تتوجع وتئن أمامه، ويشتد وجعها فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها، سوى نظرات حائرة خائفة.. نظرات حزينة.. تزيد آلامها فيزيد أنينها ورحمتها بهذا الطفل البريء، ثم تضعف آمنة وتذبل وتموت وهو ملتصق بها، يبكيها ويناشدها أن تفيق.. أن ترد عليه، لكنها لا ترد ولا تفيق، بل تؤخذ من بين يديه وهو يمسك بثيابها التي بللها بدموعه، وتدفن أمام عينيه الغارقتين بالدموع.. يمسحهما بيديه الصغيرتين وهو ينظر إليها وإلى الرجال وهم يهيلون التراب على قبرها.. بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه.

تؤخذ آمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، فيعود باكياً وحيداً حزيناً على الراحلة، ينتبه من نومه أثناء الطريق فلا يجد أمنة تحتضنه أو تقبله أو تسأله هل هو جائع،

= نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة؟ لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً ومخبريا، انظر كتاب الدكتور خليل إبراهيم خاطر (الإصابة في صحة حديث الذبابة). ومن أراد الدهشة فليراجع موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الإنترنت، فستذهله معجزاته صلى الله عليه وسلم.

منظـــره يذيب القلـــب.. طفل صغير زائغ العينين، تتمايل بـــه الراحلة والأقدار، ويصل مكـــة وقد تيتم مـــرة أخرى.. يعود إلى ذلك البيت الصغيـــر، ويجول ببصره في أركانه الصامتة، هنا كانت ترقد آمنة، وهنا كان يخبيء ألعابه، وهنا كانت تعد له طعامه، أما هنا فكان يســـتحم بيديها، وهنا كانت تلاعبه وتســـعى لإضحاكه عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.

كان بيتا كالدموع.. تجول فيه الذكريات وبقايا آمنة الحبيبة.

بيت صامت كالحداد.. لم يعد فيه صوت.. لم يعد فيه أم.. لم تعد إليه آمنة، إنها ترقد هناك بالأبواء، فيا للوعته ولهفه ويا حر قلبه عليها.

ربمـــا تنبه ليلة فلم يجدها بقربـــه ففاضت عيناه بالدمع، وألجمه الحزن والحنين إليهـــا، أو ربما كان يســـأل جده وأعمامه أو عماته عنهـــا فيتجرعون الصمت، وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتيه عنهم الإجابة.

إن للطفل أســـئلة ملحة ومحرجة، فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الدهر بأبيه وأمه.. يســـأل عنها إلى أين ذهبت ومتى ســـتعود، وهل ســـتتركه وحيداً أم ســـيذهب إليها...؟ أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصرتك خفضت رأسك وفاضت عيناك.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم بقبرها فرئي له بكاء لم يبكه من قبل.

يقول أحد أصحابه: (انتهى النبي ﷺ إلى رســـم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأســـه كالمخاطب، ثم بكى فاســـتقبله عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه، فقال: يا رســـول الله ما يبكيـــك؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، اســـتأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واســـتأذنته في الاســـتغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت. فما رؤيت ســـاعة أكثر باكياً من تلك الساعة)[1]. وذات مرة زار (قبر أمه فبكى وأبكى من حوله)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ١-١٨٩من طرق عن سفيان الثوري، عن علقة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي ثقة وعلقمة ثقة أيضاً التقريب ٢٥٠و٣٩٧، ورواه ابن حبان ٣-٢٦١وغيره بسند حسن لولا عنعنة ابن جريج فيه ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧١ .

وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع؟ إنه مجرد نبي مرسل، والأمر كله لله وحده فعليه الصبر والاحتساب، كما صبر في صغره على مرارة اليتم ووحشته، لكن ما قد يخفف بعض معاناته كونه الآن في:

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً، فحمله إلى بيته حيث تربى في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع.. صاحب الشرف وساقي الحجيج، فكانت أولى خطواته في درب الرجولة. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية، وكأن اليتم علمه أن الحياة قاسية، لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح. لقد أحبه عبد المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه، فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها، ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل، إلا في يوم من أيام الحج، حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقي الحجيج، وزعيم قريش وسليل الأنبياء، لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء، وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً يا رب رده واصطنع عندي يداً[1]

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل، ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت تثير التساؤل، فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنت عليك حزناً، لا تفارقني أبداً)[2].

---

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢-٢٠) من طرق عن خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن مشهور، لولا خارجة قال الحافظ: صدوق، وقد اعتمد على توثيق ابن حبان الذي سكت عنه في الثقات (٨-١٣٣) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لـــم يفارق هذا الشـــاب الصغير جده، ولـــم تكن أيامهما كلها رخاء وســـعة، فلقد (تتابعت على قريش ســـنون جدبـــة[١] أقلحت[٢] الجلد وأرقـــت[٣] العظم) وبات الناس في شـــظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال، وفي أحد أيام تلك الســـنين الشـــاحبة.. كانت هناك طفلة صغيرة تســـوق غنماً لأهلها، فيجري لها أمر غريب، وتســـمع صوتا أغرب.. هاهي تتحدث عنـــه فتقول: (بينا أنا ومعي صنوي[٤] أصغر مني، معنا بهمات[٥] لنا وربا، وأعبد، يردن على الســـحق[٦]، فبينا أنا راقـــدة - اللهم - أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيـــت، يصرخ بصوت صحل[٧]، يقول: يا معشـــر قريش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه[٨]، فحي هلا[٩] بالخير والخصـــب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً[١٠]، أشـــم العرنين[١١]، له فخر يكظم عليه[١٢]، وســـنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف[١٣] إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشـــنوا[١٤] من الماء، وليمســـوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت ســـبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس[١٥]، فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا ففنمتم إذا ما شئتم وعشتم.

قالـــت رقيقة: فأصبحت - علم الله - مفؤودة، مذعـــورة، قد قف[١٦] جلدي، وولـه

---

(١) أي سنون لم ينزل بها مطر.
(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعاهدها.
(٣) جعلته ليناً.
(٤) الصنو: الأخ الشقيق.
(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.
(٦) أي معها عبيد يلاحقن ما هرب من الغنم والسحق هو البعيد.
(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.
(٨) أي هذا وقت بعثته وخروجه.
(٩) أي أقبلوا مرحبا بكم لتنالوا الخير.
(١٠) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.
(١١) الشمم ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها،كناية عن الرفعة والعلو والشرف.
(١٢) أي له فخر لا يظهره ولا يبديه.
(١٣) يمشي.
(١٤) يصبوا والمراد الاغتسال به.
(١٥) جبل في مكة.
(١٦) اقشعر. والمفؤود المذعورة الخائفة المضطربة، وولـه عقلي أي ذهل عقلي مما سمعت.

عقلـي، فاقتصصت رؤياي، فنمت في شـعاب مكة، فو الحرمـة والحرم، وإن بقي بها أبطحي، إلا قال: هذا شيبة.

وتنامت عنده قريش، وانفض[1] إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، واستلموا، وطافـوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون حوله[2] ما إن يدرك سـعيهم مهله حتى قر لذروته[3]، ما سـتكفوا جنابيه، ومعهم رسـول الله - وهو يومئذ غلام قد يفع أو كـرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم سـاد الخلة[4] وكاشـف[5] الكربة، أنت عالم غير معلم، مسـول غير منحل[6]، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك - يعني أمنة حرمك- يشكون إليك سنتهم[7] التي أقلحت الظلف[8] والخف، فاسمعن اللهم وامطرن غيثـاً مريعاً مغدقاً. فما رامـوا البيت حتى انفجرت السـماء بمائها، وكظ[9] الوادي بثجيجه، فلسـمعت شـيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء - هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحاء، وفي ذلك تقول رفيقة بنت صفي:

بشـيبة الحمـد أسـقى اللـه بلدتنا ... وقـد فقدنـا الحيـا واجلـوذ المطـر
فجـاء بالمـاء جونـي لـه سـبل ... ودان فعاشـت بـه الأمصار والشـجر
سـبيل مـن اللـه بالميمـون طائـرة ... وخيـر مـن بشـرت يومـاً بـه مضر
مبـارك الأمـر يستسـقى الغمـام به ... مـا في الأنـام له عـدل ولا خطر)[10]

---

(١) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٢) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، ومعناه أحاطوا وأحدقوا.

(٣) أي لم يمر وقت قصير حتى امتلأ المكان بالناس.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثلمة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزيل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك أحد.

(٧) السِـنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير بالانتباه للسِـنة حيث يقول عليه الصلاة والسـلام: «ليست السِـنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا... وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً» رواه مسلم ٤-٢٢٢٨.

(٨) الظلف: الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي وغيرها.

(٩) ضاق الوادي من كثرته.

(١٠) هذا الخبر ليس بحديث وهو حسن، رواه الطبراني ٢٤-٢٥٩ وابن أبي الدنيا في مجابوا الدعوة ٥٦ والبيهقي من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميد الخلال، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن =

عادت الحياة خضراء في مكة، واهتزت الأرض وربت بفضل ربها، وضحك الربيع للجميع، لكن السعادة لم تدم لمحمد، فها هو بعد مدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة، لقد مات عبد المطلب جده وآخر آبائه لينتقل ربما[1]:

إلى بيت أبي طالب

حـــن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف الســـرير، ورق لحاله وكربه وبثه، ورعاه كأنه من صلبه.. ينســـيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً، فكان يلازمه ويرافقه في بعض الرحلات. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن، والصيفية تتجه نحو الشـــام، وللرحلتين أمن كأمن مكة، ذكره الله فقال ســـبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[2]، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة لمحمد وهو في طريقه نحو الشام بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشـــام ومعها (خرج أبو طالب إلى الشـــام، وخرج معه رســـول الله صلى الله عليه وســـلم وأشـــياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهـــب هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب - وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت - فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا سيد العالمين.. هذا رسول رب العالمين.. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

= عمران عن ابن حويصة، حدثني مخرمة بن نوفل، عن أمه رقيقة... والطريق الثاني: زكريا بن يحيى الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب، قال عمي عروة بن مضرس، يحدث عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفي ...وفي الأول ابن عمران، اختلط ففحش غلطه، وهو غير متهم، والآخر يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير التقريب ٣٥٨و٦٠٨ وفي الثاني الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١). ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتوبع الكلبي عند البلاذري -أنساب الأشراف ٨٢.

(١) أقول ربما لأنني لم أجد حديثا أو خبرا صحيحا يحدد عند أي أعمامه انتقل بعد وفاة جده.

(٢) سورة قريش.

فقال له أشـياخ من قريش: ما علمك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شـجر ولا حجر إلا خر سـاجدا، ولا يسجد إلا لنبي، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع صنع لهم طعاما فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - قال: أرسـلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله. قال: انظروا إليه عليه غمامة تظله. فلما دنا من القوم وجدهم قد سـبقوا إلى فيء الشـجرة عليه، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم: أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم لو رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه.

فالتفت فإذا هو بتسـعة نفر قد أقبلوا من الروم فاسـتقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالـوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشـهر فلم يبق فـي طريق إلا قد بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا. فقال لهم: ما خلفتم خلفكم أحداً هو خير منكم؟

قالـوا: لا، إنما أخبرنا خبره فبعثنا لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه، وهل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه.

وأقاموا معه، فأتاهم فقال: أنشدكم بالله أيكم وليه؟

قال أبو طالب: أنا. فلم يزل يناشـده حتى رده أبـو طالب)[1] إلى مكة خوفاً عليه بعـد أن تأكد من وجود صفة النبي المنتظر فيه، ليعود محمد إلى مكة، ويمارس عملا يرسخ به صفة أخرى فاق بها كل الناس.

الأمين والغنم

لم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. يقتات من نسبه ويتسول بشرفه. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسـه لصخورها، ويشـق طريقه بذراع مفتول، وجبين مرفوع وشـباب متجدد. تعاملت معه قريش كلهـا حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل

(١) ليس بحديث لكن إسـناد قوي، رواه ابن أبي شـيبة ٧ - ٣٢٧ وأبو نعيم - ١٢٩ والترمذي ٢- ٢٨٩ وغيره حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: وكلهم ثقات إلا يونس حسن الحديث التهذيب (٤٣٣/١١).

اســم هو له، ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده.. يُذكِّر من يمر بها ويكتفي. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)[1].

(الأمين) هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم، لقد جربوه وخبروه، والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب، وليس لدى محمد الشــاب ما يبذله من مال أو ســلطة ليرغمهم على قول ذلك، لا ســيما وهو من أصغرهم سناً، بل وربما كان أفقرهم.. ألجأه الفقر إلى أشــقى المهن وأبســطها. كان يســير طوال نهاره خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)[2] .. مهنة شاقة تمارس بأجر بخس، لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).

مهنة البســطاء وقادة الأرض والعظماء، وهل هناك أعظم من نبي. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)[3] ربما لأن صورة القطيع من الماشــية تشــبه ســير سواد الشــعوب في العالم، وهم يبحثون عن لقمة العيش، ومهمة الراعي تتطلب البحث عن أوفر المراعي عشــباً وكلأً، وإن شــق عليه ذلك، وليســت وظيفته أن يبحث عن راحته ورفاهيته. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه ومفترسيه، إن الرعي بقدر ما يولد من القســوة والخشــونة في حياة الراعي.. يهب له قلبــاً عطوفاً على رعيته، والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه الصفات، فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما. لكن بعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام، ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشــباب ويعيش بينهم، ويســمع بمغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء، والقصف في الخمارات، لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى اسمه ورجولته، ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش، والأمر عنده لا يتعدى دائرة حديث النفس والأماني، لا أكثر، يمر عليه مرور سحاب الصيف الذي يمر ولا يمطر، فهو شاب كغيره، لكن رقيه يحجز بينه وبين تلك الأشياء.

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (يبني الكعبة ويضع الحجر).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٨٩ بلفظ: (كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٢- ٧٨٩

إنــه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت له عندما كان يمســك بعصاه يهش بها على غنمه فيقول: (ما هممت بشــيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا ليلتــين، كلتاهما عصمنــي الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعــض فتيان مكة - ونحن في رعاية غنم أهلنا - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى.

فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، ســمعت عزفــاً بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أســمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي ســمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب اللــه على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشــمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر.

فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته)[1].

إن شــبابا وشــيباً تعلوهم الغرائز وتلوي أعناقهم الشهوات، فيجهدون في الحصول عليها، دون أن يوقفهم نداء ناصح أو زجر زاجر، يبذلون الأموال كالخطوات، حتى يظفروا بسويعات حمراء وخيمة العواقب، فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار، لكن محمداً أوقفته حفلة عرس، وهدهدته حتى نام، لأنه مهذب أتعبته هموم العمل، والتزام الوظيفة.. تشققت قدماه من صخور الجبال، وأدمتها أشواك الصحاري، فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً، فلاحَ له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب لــه ذلــك، فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البــرىء ما أزاح ركام الهم عن قلبه،

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ١-٣١٥ وابن حبان زوائده ٥١٥ وأبو نعيم ١٨٦: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي. قال ابن حجر : إســناده حســن متصل ورجاله ثقات. لكن أحد رجال هذا السند؛ هو ابن قيس من رجال الشــيخين؛ إلا أن الحافظ قال في التقريب: (مقبول) أي عند المتابعة، وله شاهد ذكره الذهبي في سيرته -٤١ من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وفيه جهالة زياد،سكت عنه في (الجرح والتعديل ٣- ٥٣٦ ولم يعرفه الدارقطني. المغني ٢- ٢٤٣

ليبقى مشرعاً للسرور والابتهاج، ومع ذلك لم تكن المرأة بعيدة عن خياله وأحاسيسه، فقد كان - كأي شاب سوي - بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف، وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة، لكنه لم يجد فتاةً بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسـد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال، ولها من المال شيء وفير. سمعت بمحمد بن عبد الله فشدها ما سمعته: أمانة ورجولة واتزان، فتمنته زوجاً رغم كبر سنها بالنسبة إليه، ورغم زواجها من قبل، وتم لها ما أرادت، إلا أن أباها كان عقبة دون هذا الزواج الذي تتمناه كل فتاة، لكن حب خديجة وذكاءها كانا أكبر من تخريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأسـه.. لقد ملك محمد شغاف قلبها، فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له، وفخاً لا يستطيع الفكاك منه.

يقول أحد أبناء عم النبي: (إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه[1]، فصنعت طعاماً وشـراباً، فدعت أباها وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتـى ثملوا، فقالـت خديجة لأبيها: إن محمـد بن عبد الله يخطبنـي فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقته، وألبسـته حلة - وكذلك كانوا يفعلون بالآباء - فلما سـرى عنه سـكره، نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال: ما شـأني هذا؟ قالت خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله.

قال: أُزَوِّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت: أما تسـتحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سـكران، فلم تزل بـه حتى رضي)[2] وأذعن للأمر الواقع، أما محمد ﷺ فلم يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان له في صغيرات قريش ما يريد، لا سـيما وهو حلم كل فتيات مكة ، وسمعته تعطر الطرقات والأندية، كم من فتاة حسدت خديجة على فتاها...

---

(١) أي يرفض تزويجه.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ١-٣١٢ من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار وحديثه حسـن، انظـر التقريب (٤٨/١)، عن ابن عبـاس. وقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفـة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في الخامسـة والعشـرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) لكنها ليست بصحيحة.

obeikandl.com

تزوج لأنه كان يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة.. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في نشاطاتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة
ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم[١]، ليس فيها مدر[٢]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[٣]، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، بادياً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[٤]، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قرباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا.

فلما أن أرادوا هدمه، إذا هُمّ بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائز، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا[٥] إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل. فسمعوا خواراً[٦] في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر.. أسود الظهر، وأبيض البطن والرجلين، ففرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذَنَبُها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة

---

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.
(٢) المدر هو الطين اللزج.
(٣) أي أن جدارها قصير لدرجة أن العناق تستطيع اقتحامها، والعناق أنثى أولاد الماعز.
(٤) مثل حرف D.
(٥) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.
(٦) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.